

الدرس الثامن
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين . أما بعد :

يقول رحمه الله تعالى :

فصل

إِذَا ثَبَتَ بَدَلَالَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَعْنَى الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ اسْمٌ جَامِعٌ لِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَأُصُولِ الْإِيمَانِ، وَحَقَائِقِ الْإِحْسَانِ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، بَلْ هُوَ اسْمٌ لِلدِّينِ كُلِّهِ؛ عُلِمَ أَنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَيَقْوَى وَيَضْعُفُ. وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ لَا تَقْبَلُ الْإِسْتِبَاهَ بَوَجهٍ مِنَ الْوُجُوهِ؛ لَا شَرْعًا، وَلَا حِسًّا وَوَاقِعًا.

وَذَلِكَ أَنَّ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ صَرِيحَةٌ فِي زِيَادَتِهِ وَنُقْصَانِهِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَزِدَّ دُؤْلَ إِيْمَانِنَا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [البقرة: ٤٤]،

﴿وَيَزِدَّ الدِّينَ آمَنُوا إِيْمَانَنَا﴾ [المائدة: ٣١]، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [الأنفال: ١٢٤]، ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤]، وَغَيْرَهَا مِنَ الْآيَاتِ

الشرح :

لما أنهى الشيخ رحمه الله تعالى في الفصل السابق ذكر الأدلة من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم الدالة على أن الإيمان قولٌ وعملٌ واعتقاد وأن الإيمان كما أنه يشمل ما يقوم في القلب من اعتقاد فإنه يشمل كذلك ما يكون في الجوارح من عمل ، وما يكون في اللسان من نطق ، فكل ذلكم داخل في مسمى الإيمان ، لما ذكر ذلك رحمه الله تعالى بين أن كون الإيمان يشمل ذلك كله فهذا فيه دلالة أخرى وهي أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف وأن أهله ليسوا فيه سواء لأن هذه الأمور وهذه الأعمال الداخلة في الإيمان أهل الإيمان من حيث القيام بها ليسوا على درجة واحدة بل متفاوتون فبحسب حظ العبد من أمور الإيمان وأعماله يزداد إيمانه ، فكلما ازداد من أمور الإيمان ازداد إيماناً ، وكلما نقص نقص إيمانه بحسب ذلك ، ويقول رحمة الله عليه : إن زيادة الإيمان ونقصانه مسألة لا تقبل الإشتباه واضحة في دين الله سبحانه وتعالى بالدلائل والبراهين الكثيرة في الكتاب والسنة ، وفي الوقت نفسه الحس والواقع يدل على ذلك ، الحس أي ما يجده كل إنسان من نفسه ، أو كل مؤمن من نفسه أن الإيمان يزيد وينقص ، يجد الشخص مثلاً إذا جلس في مجلس ذكر وعلم لله ودعوة إلى الله وتثقيف في دين الله وتذكير في أسماء الله وصفاته يحس من نفسه بزيادة إيمان ، وإذا جلس في مجلس لهو أو غفلة أو نحو ذلك وجد من نفسه نقصاً في الإيمان ، مجالس الذكر

يتقوى بها الإيمان ، ومجالس الغفلة يضعف فيها الإيمان ، فالحس يدل على ذلك والواقع أيضاً يدل على ذلك ، واقع الناس وحال الناس يدل على تفاوتهم في الإيمان وأنهم ليسو فيه على درجة واحدة .

ثم ساق رحمه الله تعالى بعض الأدلة من القرآن الصريحة في زيادة الإيمان ، فهي تدل صراحة على أن الإيمان يزيد مثل قول الله عز وجل : ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ وقوله ﴿وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾

وقوله ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤)

هذه آيات صريحة بأن الإيمان يزيد ، ودلالاتها صراحة على أن الإيمان يزيد تفيد أن الإيمان أيضاً ينقص لأن كل شيء يقبل الزيادة فهو يقبل النقصان ، ولهذا سئل سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى قيل له : أيزيد الإيمان وينقص ؟ قال : أما تقرأون ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ ﴿وَزِدَّ لَهُمْ هُدًى﴾ (١٣)

قالوا : أينقص ؟ قال : ما من شيء يزيد إلا وهو ينقص .

فهذه الآيات صريحة بأن الإيمان يزيد ، وكل شيء يزيد أو يقبل الزيادة فهو يقبل النقصان ، فهذه آيات صريحة بأن الإيمان يزيد والسنة جاءت بالتصريح بالنقص في الإيمان والضعف فيه ، مثل ما في قوله عليه الصلاة والسلام : [المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف] ، وقال في الحديث الآخر [وذلك أضعف الإيمان] وقال في ذكر النساء [ما رأيت من ناقصات عقل ودين] فذكر نقص الدين ، فالشاهد أن الأدلة في الكتاب والسنة جاءت صريحة بزيادة الإيمان ونقصانه ، وإذا علم أن الإيمان يزيد وينقص فليعلم أيضاً أن لزيادته أسباب ولنقصه أسباب ، وسيأتي عند الشيخ رحمه الله فصل من أنفع ما يكون في بيان ذلك .

قال رحمه الله تعالى :

وَكَذَلِكَ الْحَسُّ وَالْوَاقِعُ يَشْهَدُ بِذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّ النَّاسَ فِي عُلُومِ الْإِيمَانِ، وَفِي مَعَارِفِهِ، وَفِي أَخْلَاقِهِ، وَأَعْمَالِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ؛ مُتَفَاوِتُونَ تَفَاوُتًا عَظِيمًا؛ فِي الْقُوَّةِ وَالْكَثْرَةِ، وَوُجُودِ الْأَثَارِ، وَوُجُودِ الْمَوَانِعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَالْمُؤْمِنُونَ الْكُمَّلُ عِنْدَهُمْ مِنْ تَفَاصِيلِ عُلُومِ الْإِيمَانِ وَمَعَارِفِهِ وَأَعْمَالِهِ مَا لَا نِسْبَةَ إِلَيْهِ مِنْ عُلُومٍ عُمُومٍ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، فَعِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ عُلُومٌ ضَعِيفَةٌ مُجْمَلَةٌ، وَأَعْمَالٌ قَلِيلَةٌ ضَعِيفَةٌ، وَعِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ مِنَ الْمُعَارِضَاتِ وَالشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ مَا يُضْعِفُ الْإِيمَانَ وَيُنْقِصُهُ دَرَجَاتٍ كَثِيرَةً.

بَلْ تَجِدُ الْمُؤْمِنِينَ يَتَفَاوِتُونَ تَفَاوُتًا كَثِيرًا فِي نَفْسِ الْعِلْمِ الَّذِي عَرَفُوهُ مِنْ عُلُومِ الْإِيمَانِ.

أَحَدُهُمَا: عِلْمُهُ فِيهِ قَوِيٌّ صَحِيحٌ، لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلَا شُبْهَةَ. وَالْآخَرُ: عِلْمُهُ فِيهِ ضَعِيفٌ، وَعِنْدَهُ مُعَارِضَاتٌ كَثِيرَةٌ تُضْعِفُهُ أَيْضًا.

الشرح :

يقول رحمه الله تعالى كما أن النصوص ؛ نصوص الكتاب والسنة دلت على أن الإيمان يزيد وينقص فإن الواقع يدل

على ذلك ، الواقع والحس يدل على ذلك ؛ من جميع وجوه الإيمان ، الإيمان يزيد وينقص من جميع وجوه الإيمان ، فمثلاً علوم الإيمان يتفاوت الناس في تحصيلها ليسوا في تحصيل علوم الإيمان على درجة واحدة ، التصديق الذي في القلب ليسوا في قوته على درجة واحدة ، التصديق يزيد وينقص ، ويقوى ويضعف ، أعمال الإيمان ليسوا فيها على درجة واحدة متفاوتون ، الأخلاق والآداب التي يدعو إليها الإيمان وهي من الإيمان ليسوا فيها على درجة واحدة بل متفاوتون ، أعمال القلوب وهي داخلية في مسمى الإيمان ؛ الحياء الخشية ، الإنابة التوكل الرجاء الخوف ، هذه الأعمال القلبية وهي من الإيمان الناس فيها متفاوتون هل هم في الحياء على درجة واحدة ؟ هل هم في الخشية على درجة واحدة ؟ هل هم في التقوى على درجة واحدة ؟ هل هم في الصبر على درجة واحدة ؟ هل هم في الرضا على درجة واحدة ؟ جميع هذه الأمور الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً ، وهذا معنى قوله رحمه الله (مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِ الْإِيمَانِ) ذكر من هذه الوجوه على سبيل المثال ، العلم ؛ علوم الإيمان ، والعلم بمعارفه وأخلاقه وأعماله الناس متفاوتون بهذا ، يقول رحمه الله تعالى (مُتَفَاوِتُونَ تَفَاوُتًا عَظِيمًا ؛ فِي الْقُوَّةِ وَالْكَثْرَةِ ، وَوُجُودِ الْأَثَارِ ، وَوُجُودِ الْمَوَانِعِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَالْمُؤْمِنُونَ الْكَمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ تَفَاصِيلِ عُلُومِ الْإِيمَانِ وَمَعَارِفِهِ وَأَعْمَالِهِ مَا لَا نِسْبَةَ إِلَيْهِ مِنْ عُلُومٍ عُمُومٍ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فهذا يعتبر زيادة إيمان ؛ لأن علوم الإيمان من الإيمان ، وتعلم علوم الإيمان من الإيمان ، وكما أنه يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالصلاة والصيام وغير ذلك أيضاً يتقرب إليه بطلب العلم ، والعلم نفسه زيادة إيمان ، العلم الشرعي نفسه زيادة إيمان لأن علوم الإيمان من الإيمان ، وما يُقَرَّبُ إلى الله سبحانه وتعالى بمثل طلب العلم ، كما قال بذلك أئمة السلف ، فالعلم نفسه وتحصيله والجلوس له وحفظ الوقت في تعلمه ، هذا كله من زيادة الإيمان ، وكم من علوم إيمانية حصلها العبد فكان لها الأثر العظيم عليه في حياته وعبادته وسلوكه وأخلاقه وتعامله إلى غير ذلك .

قال (فَعِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ عُلُومٌ ضَعِيفَةٌ مُجْمَلَةٌ ، وَأَعْمَالٌ قَلِيلَةٌ ضَعِيفَةٌ) انظر الآن أحوال الناس في العلم الذي هو من الإيمان ، العلم الشرعي الذي هو من الإيمان ، قسمٌ منهم عندهم علوم تفصيلية ، وعندهم توسع وإطلاع وعناية كبيرة بعلوم الشريعة والعلم بالله وبأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى ، قسمٌ آخر عندهم علوم ضعيفة مجملة ليس عنده علوم تفصيلي بالشريعة ، وإنما عنده علوم ضعيفة مجملة وأعمال قليلة ضعيفة ، وقسمٌ آخر عنده (مِنَ الْمُعَارِضَاتِ وَالشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ ؛ مَا يُضْعِفُ الْإِيمَانَ) بدل ما يكون في صدره علوم شرعية في صدره شبهات تموج في صدره ، أو شهوات تلتهب في صدره ، بدل العلوم الشرعية التي يملأ بها القلب وما ملأ بمثل العلم والفقه والخشية لله سبحانه وتعالى ، ومن الناس من قلبه فيه من الشبهات أو الشهوات أو المعارضات للإيمان ، أو المعارضات للإيمان وحقائق الدين هذا الذي في صدره ، فالناس يتفاوتون تفاوتاً عظيماً .

قال (بَلْ تَجِدُ الْمُؤْمِنِينَ يَتَفَاوَتُونَ تَفَاوُتًا كَثِيرًا فِي نَفْسِ الْعِلْمِ الَّذِي عَرَفُوهُ مِنْ عُلُومِ الْإِيمَانِ) وهذا أيضاً وجه في التفاوت بينهم في العلم قال تجد تفاوتاً كثيراً في نفس العلم الذي عرفوه من الإيمان ، (أَحَدُهُمَا : عِلْمُهُ فِيهِ قَوِيٌّ صَحِيحٌ ، لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَا شُبْهَةَ . وَالْآخَرُ : عِلْمُهُ فِيهِ ضَعِيفٌ ، وَعِنْدَهُ مُعَارِضَاتٌ كَثِيرَةٌ تُضْعِفُهُ أَيْضًا) هذا كله من بيان أن الإيمان يزيد وينقص من هذه الجهة ؛ جهة علوم الإيمان وتحصيل علوم الإيمان ، أيضاً من الجهات الأخرى التي يزيد فيها الإيمان : قال رحمه الله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَخْلَاقُ الْإِيمَانِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهَا تَفَاوُتًا كَثِيرًا ؛ صِفَاتُ الْحِلْمِ وَالصَّبْرِ وَالْخُلُقِ وَغَيْرَهَا)

الشرح :

أخلاق الإيمان يتفاوتون فيها تفاوتاً كثيراً ليسوا في أخلاق الإيمان على درجة واحدة مثل الحلم والصبر والخلق

والحياء والرضا والخشية والإنابة والتوكل والرجاء والخوف ، هذه كلها من أعمال الإيمان القلبية والناس يتفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً ، أيضاً الأخلاق الظاهرة وهي من الإيمان ، من الكرم والبر والصلة والصدق والوفاء وغير ذلك من الأعمال هذه كلها يتفاوت الناس فيها تفاوتاً عظيماً .

قال رحمه الله تعالى :

وَكَذَلِكَ فِي الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ؛ كَالصَّلَاةِ: يُصَلِّي اثْنَانِ صَلَاةً وَاحِدَةً، وَأَحَدُهُمَا يُؤَدِّي حُقُوقَهَا الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، وَيَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ، وَالْآخَرُ يُصَلِّي بِظَاهِرِهِ، وَبَاطِنُهُ مَشْغُولٌ بِغَيْرِهَا، وَكَذَلِكَ بَقِيَّةُ الْعِبَادَاتِ

الشرح :

أيضاً العبادات والأعمال ؛ أعمال الإيمان ، وقد مر معنا قول الله عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي

صلاتكم ، فالصلاة من الإيمان ، والناس يتفاوتون في الصلاة ، قد يشترك إثنان في الصورة الظاهرة للعمل من حيث مثلاً طول القيام أو طول الركوع أو طول السجود ، قد يشترك اثنان في صورة العمل الظاهرة لكن بين عملها أي بين صلاتيهما من التفاوت كما بين السماء والأرض هذا مقبل على صلاته بقلبه بخشوع وحسن إقبال على الله تبارك وتعالى وعناية بالصلاة وإقامة لها بأركانها وشروطها وواجباتها ومستحباتها ، والآخر يصلي ببدنه وقلبه ليس مع الصلاة ، القلب إما في السوق أو في العمل أو في المصالح الأخرى ، بل من الناس نسأل الله الكريم العافية بمنه وكرمه من الناس من يصلي واقف في صلاته وقلبه مشغول بالشهوة المحرمة ، وقلبه مشغول بالشهوة المحرمة ، أي صلاة وأي صلاة هذه ؟! وقلبه متحرك في شهوة محرمة ؟! أو قلبه يمشي بشبهات مضلة وأهواء باطلة ، فالصلاة صلة بين العبد وبين الله ، وليس له من صلاته إلا ما عقل منها ، ولهذا يتفاوت الناس في نصيبهم وحظهم من هذه الصلاة بحسب ما عقلوا من صلاتهم ، منهم من يصلي ليس له من صلاته إلا نصفها ألا ربعها إلا ثلثها إلا ثمنها إلا سدسها كما جاء بذكر الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، هؤلاء الذين تفاوتوا في أجر الصلاة صورة العمل قد تكون واحدة من حيث الركوع والسجود ونحو ذلك ، لكن اختلف أجر هؤلاء بحسب حظهم مما عقلوا من صلاتهم ، فإذا العمل الواحد من أعمال الإيمان مثل الصلاة يتفاوت فيه الناس تفاوتاً عظيماً ، الحج قد يشترك مجموعة في سفرة واحدة في رحلة واحدة ، في مسار واحد في طريقهم أعمالهم الظاهرة واحدة ، لكن يتفاوت حجبهم تفاوتاً عظيماً ، وقد سئل نبينا عليه الصلاة والسلام [أي الحجاج أعظم أجراً ؟ قال : أكثرهم لله ذكراً] ومعنى [أكثرهم لله ذكراً] أي بالقلب واللسان ، بالقلب واللسان ، وهكذا قل في جميع الطاعات فأكثر الناس أجراً في كل طاعة أكثرهم لله ذكراً فيها ، أكثرهم لله ذكراً فيها ، فالشاهد أن أهل الإيمان يتفاوتون في أعمال الإيمان تفاوتاً عظيماً ، وهذا مما يدل على أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف .

قال رحمه الله تعالى :

وَلِهَذَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ ثَلَاثَ مَرَاتِبَ: مَرْتَبَةُ السَّابِقِينَ، وَمَرْتَبَةُ الْمُقْتَصِدِينَ، وَمَرْتَبَةُ الظَّالِمِينَ.
وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ - أَيْضًا - أَهْلُهَا مُتَفَاوِتُونَ تَفَاوُتًا كَثِيرًا.
وَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ - فِي نَفْسِهِ - لَهُ أَحْوَالٌ وَأَوْقَاتٌ تَكُونُ أَعْمَالُهُ كَثِيرَةً قَوِيَّةً، وَأَخْيَانًا بِالْعَكْسِ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِهِ، وَمِنْ قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ.

الشرح :

هذا شاهد آخر ذكره رحمه الله تعالى لبيان أن الإيمان يزيد وينقص ، وهو أن أهل الإيمان من حيث الجملة على ثلاث مراتب ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ، وهذه المراتب الثلاثة لأهل الإيمان ذكرها الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة في قوله جل وعلا : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ

يَاذِنِ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ أَفْضَلُ الْكَبِيرِ ﴿٣٦﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴿٣٧﴾ فذكر عباده سبحانه وتعالى الذين أورثهم الكتاب ،

أورثهم القرآن الذين اصطفاهم وهداهم لهذا الدين أنهم على ثلاثة أقسام ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ، ثم ذكر ثوابهم دخول الجنات ، ثم بعد هؤلاء ذكر قسم هؤلاء فقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ

لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَؤُنَا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ فإذن هؤلاء الأقسام الثلاثة الظالم

والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم من عباد الله الذين ورثوا الكتاب وآمنوا بالله عز وجل لكنهم في إيمانهم متفاوتون ، وهم في الجملة ينقسمون إلى هذه الأقسام الثلاثة منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ، ومن المفيد جداً أن يعرف أهل كل مرتبة من هم ؟ وما حقيقة عملهم ؟ أما الظالم لنفسه فهو الذي ظلم نفسه بإرتكاب الذنوب والمعاصي أو بترك بعض واجبات الدين ما لم يبلغ حد الكفر بالله ، هذا يقال له ظالم لنفسه ، ويقال لهذا الصنف عصاة الموحدين ويقال عن من كانت هذه حاله مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته أو يقال مؤمنٌ ناقص الإيمان أو مؤمنٌ ضعيف الإيمان ، فهذا ظالم لنفسه أي ظلم نفسه بفعل بعض المحرمات أو ترك بعض الواجبات ما لم يبلغ حد الكفر أو الشرك لأنه إن بلغ حد الكفر والشرك بالله انتقل من هذا القسم بأقسامه الثلاثة إلى القسم الذي ذكر بعده وهو قوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فالظالم لنفسه هو من ظلمها بالمعاصي التي هي دون الكفر بالله سبحانه

وتعالى ، والمقتصد هو الذي اقتصر على فعل الواجب وترك المحرم ، لم ينشط للمستحبات والرغائب والسنن اقتصر على فعل الواجب وترك المحرم اكتفى بذلك لا يزيد عليه ، مثل الصحابي الذي ذكر له النبي صلى الله عليه وسلم مباني الإسلام الخمسة فقال : [والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص] قال النبي صلى الله عليه وسلم : [أفلح إن صدق] وفي رواية [دخل الجنة وإن صدق] هذا يقال له المقتصد الذي يفعل الواجبات ويترك المحرمات ، السابق بالخيرات هو الذي فعل الواجب وترك المحرم وزاد على ذلك بالعناية بالرغائب والمستحبات وفي الحديث القدسي [ولا يزال عبيدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه] فإذن هذه ثلاثة مراتب لأهل الإيمان ، الظالم لنفسه ، والمقتصد والسابق بالخيرات .

الظالم لنفسه بظلمه لنفسه بهذه المعاصي عرّض نفسه للعقوبة ، نعم هو مآله إلى الجنة لأن الله قال عن هؤلاء الثلاثة ﴿

جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴿٣٧﴾ بما فيهم الظالم لنفسه ، لكن الظالم لنفسه عرضة للعقوبة لا يلزم أن يكون دخوله للجنة

دخولاً أولاً قد يدخل قبل ذلك النار ، ويبقى فيها مدة يطهر وينقى ويمحص ، ثم بعد ذلك يكون دخوله الجنة ،

فهو يدخل الجنة يشمله قول الله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ لكن لا يلزم من ذلك أن يكون هذا الدخول دخولاً أولياً ، بل قد يسبق ذلك مرحلة دخول النار يتطهر بها من ذنوبه ، وقد جاءت الدلائل الكثيرة الدالة على دخول عصاة الموحدين النار وأنهم يطهرون فيها ثم يخرجون منها كما جاء بالحديث [ضبائر ضبائر ويلقون في نهر الفردوس فيحيون بماءه وينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل] كما جاء الحديث في ذلك في الصحيحين وغيرهما عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ، أما المقتصد وهو الذي فعل الواجب وترك المحرم والسابق بالخيرات الذي زاد على ذلك فعل الرغائب والمستحبات فهما يدخلان الجنة دخولاً أولياً بدون حساب ولا عذاب ، الذي فعل الواجبات وترك المحرمات ما نشط للرغائب والسنن والمستحبات يدخل الجنة دخولاً أولياً ، لماذا ؟ لأن المستحبات إن فعلها أثيب وارتفعت درجته في الجنة وإن لم يفعلها لم يعاقبه الله لأن الله لم يوجبها عليه ، لم يفرضها عليه ، فهي مستحبات إن فعلها زاد إيمانه ، وإن لم يفعلها لم يعاقب زادت درجاته إن فعلها ، وإن لم يفعلها لم يعاقب ، فالمقتصد الذي اقتصر على فعل الواجب وترك المحرم يدخل الجنة دخولاً أولياً مثل ما جاء في الحديث [أ رأيت إن أدت الصلاة المكتوبة والزكاة المفروضة وأحللت الحلال وحرمت الحرام أ أدخل الجنة ؟ قال : نعم] فالذي يؤدي الواجبات ؛ واجبات الدين ويتجنب المحرمات يدخل الجنة دخولاً أولياً بدون حساب ولا عذاب ، وأما السابق بالخيرات فإن سبقه بالخيرات علو لمنازله يوم القيامة ورفعة لدرجته في جنات النعيم كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا أُولَئِكَ أَجْرٌ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾

قال رحمه الله تعالى :

وَكَانَ خِيَارُ الْأُمَّةِ وَالْمُعْتَنُونَ بِالْإِيمَانِ مِنْهُمْ يَتَعَاهَدُونَ كُلَّ وَقْتٍ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي زِيَادَتِهِ وَتَقْوِيَّتِهِ، وَفِي دَفْعِ الْمُعَارِضَاتِ الْمُتَقَصِّصَةِ لَهُ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي ذَلِكَ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يُبَيِّنَ إِيْمَانَهُمْ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْهُ؛ مِنْ عُلُومِهِ وَأَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ. فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَزِيدَنَا عِلْماً وَيَقِيناً، وَطُمَأْنِينَةً بِهِ وَيَذْكِرَهُ، وَإِيمَانًا صَادِقًا.

الشرح :

يقول رحمه الله تعالى (خِيَارُ الْأُمَّةِ وَالْمُعْتَنُونَ بِالْإِيمَانِ) طريقتهم أنهم يتعاهدون الإيمان ، يتعاهدون الإيمان لأن الإيمان أئمن شيء عندهم وأغلاه وأنفسه ، فيتعاهدونه تعاهداً عظيماً ، ويتفقدون إيمانهم ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يدعوا بعضهم بعضاً إلى مجالس الإيمان (هلموا نزدد إيماناً) (تعالوا نزدد إيماناً) هذه اللفظة جاءت كثيراً عن الصحابة يدعوا بعضهم بعضاً إلى مجالس الإيمان التي هي مجالس العلم ؛ مجالس العلم التي يزداد بها إيمان الشخص ، الصحابي عمير بن حبيب الخطمي رضي الله عنه يقول : أو سئل : أيزيد الإيمان وينقص ؟ قال : نعم إذا ذكرنا الله وسبحناه زاد ، وإذا غفلنا نقص .

فصاحب الإيمان الذي لإيمانه شأن عنده ومكانه يتعاهد إيمانه ويتفقدده وينظر ما هي الأسباب التي أدخلت على إيمانه الضعف يتتبع عنها ، وما هي الأسباب التي يزداد بها الإيمان فيقبل عليها ، يتفقد إيمانه ويحاسب نفسه ، ويجاهد نفسه على زيادة الإيمان والبعد عن الغفلة عن الله سبحانه وتعالى ويسأل الله الثبات ، وكان من أكثر دعاء نبينا : يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، ويدعو الله ويسأل الله عز وجل يجاهد نفسه على تقوية الإيمان ، والله جل وعلا يقول :

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَهُمْ صُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

قال رحمه الله تعالى :

وَحِيَارُ الْخَلْقِ - أَيْضًا - يَطْلُبُونَ وَيَتَنَافَسُونَ فِي الْوُصُولِ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ ، بَعْدَ عِلْمِ الْيَقِينِ ، وَإِلَى حَقِّ الْيَقِينِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمَنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ فَخَذَ مِنْ الْأُطْرُفِ فَصَرَّهُنَّ وَإِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [سُورَةُ النِّعَةِ : ٢٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ : ٢٧] .

الشرح :

خيار الخلق الذين هم أنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه وهم صفوة الخلق أيضاً يتنافسون في الوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين وإلى حق اليقين ، وذكر مثلاً على ذلك قول الله عز وجل : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ

تُنْجِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمَنٌ قَالَ بَلَىٰ﴾

اليقين موجود ﴿أُولِمُ تُوْمَنٌ قَالَ بَلَىٰ﴾

اليقين موجود عنده عليه الصلاة والسلام ، لكنه أراد زيادة ؛ زيادة إيمان ، زيادة يقين ، اليقين نفسه موجود يدل عليه قوله ﴿بَلَىٰ﴾ ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ﴾

قال غير واحد من أئمة السلف من علماء التفسير فيما نقله عنهم ابن جرير الطبري وابن كثير رحمه الله مثل سعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة ، عدد من أئمة التفسير ، قالوا : (معنى قوله : ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ﴾ ليزدد إيماني ، فالإيمان موجود ، لكنه طلب الزيادة ، والزيادة التي طلبها معينه ، هو عنده علم اليقين ، لكنه أراد عين اليقين ، وهي درجة قوية ، عين اليقين أن يعاين وأن يشاهد ببصره ذلك ، يشاهد ذلك ، فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ فَخَذَ مِنْ الْأُطْرُفِ فَصَرَّهُنَّ وَإِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ خذ أربعة من الطير وقطعهن أوصالاً قطعاً صغيرة ، وامزج هذه القطع بعضها ببعض ثم خذ من هذا المجتمع المتقطع من هذه الطيور الأربعة ﴿أَجْعَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ فأتته تسعى رجع كل عضو وكل قطرة دم وكل شعرة وكل شيء من ذلك رجع إلى موضعه كما كان ، رجع إلى موضعه كما كان ، فالذي طلبه عليه صلوات الله وسلامه هو زيادة اليقين ، الذي

طلبه عليه السلام زيادة اليقين أما اليقين نفسه موجود ﴿أَوَلَمْ تَوْمُنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظْمِنُ قَلْبِي﴾ أي ليزدد إيماني ، فطلب الزيادة في الإيمان أيضاً موجود عند صفوة الخلق أنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه ، وشتان بين من يطلب الزيادة ؛ زيادة الإيمان وبين من هو مغتر في نفسه وعمله ويرى أنه قد كمل أو يدعى لنفسه ادعاءات من تزكية للنفس أو ثناء عليها أو عجب بها أو نحو ذلك .

قال رحمه الله تعالى :

وَالْحَوَارِيُّونَ خَوَاصُّ أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ - حِينَ طَلَبُوا نَزُولَ الْمَائِدَةِ، وَعَظَّمَهُمْ عِيسَى عَنْ هَذَا الطَّلَبِ - ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَظْمِنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ] ، فَذَكِّرُوا حَاجَتَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ، وَحَاجَتَهُمُ الْعِلْمِيَّةَ الْإِيمَانِيَّةَ إِلَى ذَلِكَ.

الشرح:

الحواريون وهم خواص عيسى عليه السلام : ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ فالحواريون وهم خواص عيسى عليه السلام طلبوا نزول المائدة ووعظهم عيسى على هذا الطلب ، فذكر سبب طلبهم ، ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ هذا مثل ما قال الشيخ حاجة دنيوية ، المائدة طلبناها نريد أن نأكل منها حاجة دنيوية ، الأمر الآخر ﴿وَنَظْمِنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ وهذه حاجة علمية إيمانية ، حاجة علمية إيمانية ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فهذا كله من باب زيادة الإيمان ، ﴿وَنَظْمِنَ قُلُوبُنَا﴾ أي تردد إيماناً ويقيناً ، وهذا فيه أن العبد ينبغي عليه أن يعتني عناية دقيقة جداً بشواهد الإيمان ودلائله وبراهينه وما يتقوى به الإيمان ليزدد إيماناً مع إيمانه ، وقد مر معنا قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَكُنْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٤٥﴾

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلي وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .